الكُتُبُ التي أدخلها الحافظ أبو بكر بن العربي إلى الأندلس

تَسميتُها وخَبَرُها في كُتُبِ النَّقلَةِ

د. عبد اللّه التَّوْرَاتِي | أستاذ باحث/المملكة المغربية

توطئة:

كانت رِحلةُ الحافظ الكبير **أبي بكر بن العربي** رحلة ممتدَّة في الزمان والمكان، فيها ما ليس في غيرها؛ فنمطُها بديع، وخَطُّ سيرها رفيع، وجوانب الاقتدار فيها لائحة مانحة، ولم تكن رحلة رجل من عامَّة الناس، ولا رحلة طالب يَحْدُوه الشوق إلى العلم وحده، بل كانت رحلة رجل الأقدار، ومقامًا باذخًا يصل المغرب بالمشرق، وكانت مهمته التي كُلفها تؤهله لأن يكون حديث الخاصَّة والعامَّة، على امتداد الزمان وتعاقب الحَدثان.

وأعانه على ذلك خلالٌ لَقِنها من والده، تجعله عارفًا بمراسيم مخاطبة الوزراء والأمراء؛ يعرف كيف يهتدي إلى قلوب الناس، ويُدرك كيف يصل إلى مطلوبه ومرغوبه؛ لهذا كانت رِحلته مُنتجة، وعلامات التوفق فيها مُبهجة، مكَّنته في تلك السنوات العَشر من الاحتواء على مقاصد رِحلته، ومعاقد رَغبته.

ومن اعتنائه الذي واظب عليه تصحيح أصول المعارف، وانتساخ دواوين العلم، ومعارضتها بالأم، والتوثق منها، وقراءتها على مشيخته، ومناظرتهم فيها، ومفاتشتهم في مسائلها؛ في كل البلدان التي نزل بها؛ في المهدية، ومصر، وبيت المقدس، ومكَّة المعظَّمة، والعراق، والإسكندرية، وغيرها.

وقد ذكر **الحافظ أبو بكر** بعضًا من تلك المصنفات التي رجع بها إلى الأندلس، وشَرط على نفسه في هذا الذِّكر أن يخص ما سَبق به وكان أول مُدخل له، ولم يذكر غيره، وهي كثرة متكاثرة، يدل عليها إحالاته الجليلة في كُتبه ودواوينه.

وبعضُ هذه الأصول مما لحقته الآفات؛ يوم دُخلت عليه دارُه؛ عند فتنة سفلة إشبيلية ودهمائها، بتحريض من أمراء الجَور وعلماء السُّوء.

الخبرُ عن بعض أُصول ابن العربي في كُتب المفيدين:

وقد ذَكر بعضُ المفيدين تلك الأصول التي حصَّلوها، ونقلوا منها، ووصفوا بعضها، وذكروا جِرمها، وموضع نسخها، وهذا يُفيد في منزلتها وصحَّتها عند أهل العلم بالنقل والحديث.

فمن تلك الكُتب التي عوَّل عليها بعضُ أهل العلم كتاب **ابن مَاكُولَا**، المترجم باسم: «الإكمال في رفع عارض الارتياب، عن المؤتلف والمختلف من الأسماء والكُنى والأنساب».

وقد وقف على أصل **ابن العربي** منه الحافظ الناقد **أبو الخطَّاب بن واجب**، واستخرج منه فرعًا عارضه -أيضًا- بأصل **أبي الطاهر السِّلفي**، وطالع هذا الأصل عالمان جليلان من أهل سبتة، هما: **أبو القاسم التُّجِيبي**، و**ابن هانئ** [1].

ومن أصول ابن العربي التي أفاد منها المفيدون أصله من سنن **أبي داود**؛ رواية **اللؤلؤي**، قال فيه الناقد **ابن رُشَيد**: "نقلتُه من خط القاضي أبي بكر بن العربي -رحمه اللّه-، من أصله الذي كَتب بالبيت المقدَّس، عن أبي بكر الطُّرطوشي، وسمعه عليه، وسمعه بعدُ على الشيخ الفقيه أبي الحسن علي بن سعيد العبدري الأندلسي -نزيل بغداد- الشَّافعي، عن أبي بكر الخطيب" [2].

جِنْسُ الكُتب المُدخلة:

وتنوَّعت هذه الكتب، واختلفت أجناسها وتعدَّدت، وهي في فنون شتى؛ في أصول الحديث، والنقد، والعلل، والرجال، والفقه، والخلاف العالي، واللغة، والاعتقاد، والأصول، والمسائل، والقراءات، والتواريخ، وغيرها.

وكثير منها لا يُعلم له موضع أو موقع، ولا يُعرف له ناقل، بل لا يُعرف له ذِكْر إلَّا في هذا الموضع الذي أَلمح إليه **الحافظ ابن العربي**.

وقد ذَكر **القاضي ابنُ العربي** هذه الكُتب في أواخر كتابه العظيم «سراج المريدين»، وهو كتاب قد صدر قريبًا عن دار الحديث الكتانية بعنايتي وتَقْدِمَتي، وذكرتُ في تعليقاتي على هذه الكتب ما يفيد في معرفة حالها وروايتها، وبعضها مما لحقه التصحيف الشنيع عند بعض الناقلين [3].

(1) إفادة النصيح: (ص126)، هامش رقم (416).

(2) ملء العيبة: (5/241).

(3) منهم: أستاذُنا الشيخ د.عمار طالبي حيث ألحق -مشكورا مأجورا- فصلاً (بالمؤلفات التي أتى بها ابنُ العربي من المشرق) في خاتمة تحقيق كتاب "العواصم من القواصم"، معتمدا الأصل المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية من "سراج المريدين" تحت رقم20348ب. ونظرا لما اعترى النص من تصحيف وتحريف، ارتأينا إعادة نشره محقّقا سالما من خطأ تحصيلا لفائدة الفصل. (مدير النشر)

تسميةُ الكُتب التي سبق ابنُ العربي إلى إدخالها لبلاد الأندلس:

قال الحافظ الناقد أبو بكر بن العربي -رحمه اللّه- في كتابه «سراج المريدين»:

"والحمدُ للّه الذي جعلنا ممَّن رحل وحصَّل، وقيَّد وبلَّغ وأوصل، وأنذر بما لم يُنْذَرْ به من قبْل.

ومن الفوائد المذكورة:

«كتاب ابن مَاكُولَا في المُؤْتَلِف والمختلف» [4].

كتاب «جُذوة المقتبس في تاريخ الأندلس» [5].

«اختصار تفسير القرآن للطبري» [6].

«تفسير القرآن» [7] للقُشَيري؛ المُسَمَّى باللطائف والإشارات [8].

«أسماء اللّه» [9] لابن فُورَكَ.

«أسماءُ اللّه» [10] للقُشَيري.

«الأحاديثُ التي خُولِفَ فيها مالك» [11] للدَّارُقُطْنِي.

«السُّنَنُ» [12] للفِرْيَابِي.

«من الأفراد» [13] للدارقطني.

«صحيح الحديث» [14] للإسماعيلي.

«نسخة أبي زكرياء يحيى بن معين من حديث يحيى بن يحيى التميمي» [15].

«حديث هلال الحفَّار» [16].

«مشيخة أبي علي بن شاذان» [17].

«تسمية شيوخ مالك وسفيان وشعبة» [18] لمسلم.

«وفاة الشيوخ» [19] لابن المنادي.

و«نسخة همَّام بن مُنَبِّه» [20].

«كتاب الشجرة» [21] للجُوزَجاني في أسماء المحدثين.

«المدخل إلى معرفة كتاب البخاري» للإسماعيلي.

«تسمية كل من روى عن مالك بن أنس» [22]؛ ألف رجل، تأليف الخطيب.

«الفَصْلُ للوَصْلِ المُدْرَجِ في النَّقْلِ» له.

«طبقات الفقهاء» للشِّيرَازِي.

«أوهام البراذعي» لعبد الحق.

«الخصال» [23] للعبدي.

«الشَّامل» [24] لابن الصبَّاغ.

«الأساليب» [25] لأبي المعالي.

و«الغنية» [26] له.

«تعليقة الخُجَندي» [27].

«تعليقة أبي المطهِّر المعداني»؛ خطيب أصفهان.

«المُشَجَّرُ في نُكَتِ النظر» للحاكم الإِسْتَرَابَاذِي [28] السعيداني، في عشرين [ألف] ورقة، بأدلة مسائل الفقه أجمع، لم يؤلف بَشَرٌ مثله، يقول فيه:

دليلٌ يثبت مائة مسألة، وهي: كذا وكذا، دليلٌ يثبت تسعين مسألة، دليلٌ يثبت سبعين، دليلٌ يثبت سِتِّين، دليلٌ يثبت عشرة، وتسميتُها هكذا، حتى تمَّت المسائل كلها.

«بُلْغَةُ النظر» للخُجَندي.

«أسرار اللّه في المسائل» [29] للدبُّوسي، في عشرة أسفار.

وقد كنتُ وَرَدْتُ من تلك الديار الكريمة سنة خمس وتسعين، فنزلتُ بتلمسان وبفاس، وكنت أذكر منها مسائل، وأُعَجِّبُهُمْ من أغراضها، فما تحرَّكت لذلك همَّة، ولا نشأت عزيمة، إلَّا لرجل واحد؛ عَلِمَ أنِّي إذا سُئِلْتُ قراءتها أو إعارتها أقول:

هي من أواخر العلم، فإذا أخذتم أوائله مكَّنتكم منها، وتاقت نفسه إليها فرحل إلى العراق، وكتبها من مدرسة الحنفيَّة بمدينة السَّلام، وجاء بها، وكان ذلك من جميل صُنْعِ اللّه معي؛ فإنه لمَّا ذُهِبَ ببعضها عند فَيِّ الدار؛ أَسِفْتُ لها ولِـمَا مضى من أمثالها،

(4) هو: كتاب الإكمال في رفع عارض الارتياب عن المؤتلف والمختلف من الأسماء والكنى والأنساب، يرويه ابنُ العربي عن أبي بكر بن طرخان (فهرس ابن خير: ص274).

(5) من تأليف الإمام الحافظ أبي عبد اللّه محمد بن فتُّوح الحميدي، سمعه ابن العربي من أبي بكر محمد بن طَرخان التركي، فهرس ابن خير: (ص281).

(6) ذكره في قانون التأويل: (ص119-118)، ولم يُبَيِّنْ لمن هو، ولعله لأبي عبد اللّه محمد بن عبد اللّه النَّحْوي؛ أحد المجاورين بمكة، واسم كتابه: «البيان في تفسير القرآن»، فهرس ابن عطية: (ص62).

(7) يرويه ابن العربي عن أبي سعد الزنجاني وأبي الفضائل بن طوق.

(8) في (د): الإشارة.

(9) من جملة الكتب التي لم يعثر لها على خبر، وأفاد منه السكوني في كتابه التمييز، في موضعين: (ق26/أ)، و(ق101/ب)، وسمَّاه فيهما: «الكتاب الكبير في الأسماء».

(10) هو كتاب التحبير في علم التذكير، سمعه ابن العربي من أبي الفضائل بن طوق، فهرس ابن خير: (ص370).

(11) سمعه ابنُ العربي من ابن الطُّيوري، فهرس ابن خير: (ص229).

(12) لا خبر عن وجوده، والفريابي هو: الإمام الحافظ الحجة، محمد بن يوسف بن واقد، أبو عبد اللّه الضبي، (221-120هـ)، سمع من الثوري والأوزاعي، وعنه البخاري، ترجمته في: سير النبلاء: (118-114/10)، وكتاب السنن هذا ذكره له ابن نقطة في التقييد: (36/2).

(13) نُشِرَ بعضه.

(14) اسمه: «المسند الصحيح المخرج على كتاب البخاري»، ولا خبر عن وجوده، وهو في أربع مجلدات، من تأليف الإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي الجرجاني، (371-277هـ)، يرويه ابن العربي عن أبي المعالي ثابت بن بُندار (فهرس الحَجْري: ص163)، ترجمته وأخباره في: العواصم: (ص53-49)، وسير النبلاء: (296-292/16).

(15) قال ابنُ العربي في شأن هذه النسخة: «لم يسبقني إليها أحد»، العارضة: (190/9).

(16) يرويها ابنُ العربي عن الإمام طِراد الزينبي عن هلال الحفَّار تـ 414هـ، فهرس ابن خير: (ص209).

(17) له مشيختان؛ كبرى وصغرى، وهذه نشرت؛ عن كل شيخ حديث، والأخرى فيها عواليه عن الكبار، وابن شاذان هو: الحسن بن أحمد بن إبراهيم البغدادي البزاز، المتكلم الأشعري، مسند العراق، (425-339هـ)، ترجمته في: سير النبلاء: (418-415/17).

(18) يرويه ابن العربي عن ابن الطيوري، فهرس ابن خير: (ص266).

(19) لعله الإمام الحافظ أبو الحُسَين أحمد بن جعفر البغدادي، (336-257هـ)، ترجمته في: سير النبلاء: (362-361/15).

(20) يرويها ابنُ العربي عن ابن طرخان التركي وابن أبي يعلى الفرَّاء، فهرس ابن خير: (ص208).

(21) يرويه ابن العربي عن هبة اللّه ابن الأكفاني، تقدَّم ذكره في السِّفْرِ الثاني من السراج، ونشر باسم «أحوال الرجال».

(22) يرويه ابنُ العربي عن الشريف ابن أبي الجن عن الخطيب البغدادي، وكتابه هذا لا خبر عنه في فهارس دُورِ الكتب وخزائنها، واللّه أعلم، ينظر: فهرس الحَجْري: (ص113).

(23) العبدي هو: أحمد بن محمد، أبو يعلى البصري، تـ 489هـ، ترجمته في: ترتيب المدارك: (100-99/8).

(24) كتاب «الشَّامل» في الفقه الشَّافعي، حُقِّقَ بعضه في رسائل جامعية، ومؤلفه هو: عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد، أبو نصر الصبَّاغ، الإمام العلَّامة، تـ 477هـ، وكتابه هذا يجوز أن يكون ممَّا سمعه من شيخه أبي بكر الشَّاشي أو أبي منصور بن الصبَّاغ، ينظر: العارضة: (195/3)، وترجمة أبي نصر في: طبقات الشَّافعية: (134-122/5).

(25) يرويه ابنُ العربي عن أبي سعد الزنجاني، ينظر: المسالك: (181/6).

(26) هو كتاب: «غنية المسترشدين»؛ في الخلاف العالي، سير النبلاء: (475/18).

(27) الفقيه العلَّامة الإمام، محمد بن ثابت بن الحسن، أبو بكر الخُجَنْدِي، نزيل أصفهان، تـ 483هـ، وكتابه هذا يغلب على ظني أن يكون من رواية ابن العربي عن أبي المُطَهَّر الأثيري الأصفهاني، ينظر: العارضة: (297/3)، وترجمته في: طبقات الشافعية لتاج الدين السبكي: (125-123/4).

(28) الفقيه العلَّامة الإمام، علي بن أحمد بن محمد بن الحسن الحاكم، أبو الحسن الإستراباذي، وكتابه الذي ذكره ابنُ العربي لم أجده مذكورًا في غير هذا الديوان، ترجمته في: طبقات الشافعية للسبكي: (241-240/5).

(29) ويسمى أيضًا: «أسرار المسائل»، في ثلاثة أسفار كبار، حُقِّقَ في رسائل جامعية، وأفاد منه ابن العربي في مؤلفاته؛ «الأحكام»، و«التخليص»، والدبُّوسي هو: عبد اللّه بن عمر بن عيسى البخاري الحنفي، أبو زيد الدبُّوسي، العلَّامة الإمام، تـ 430هـ، ترجمته في: سير النبلاء: (521/17)، وينظر: معجم التراث الإسلامي: (1413/2).

ممَّا لا أجبره إلَّا بالرحلة مرة أخرى، فأُعْلِمْتُ بأن هذا الرجل جلبها، فاستدعيتُها وجبرت ما فاتني منها، ولكن النسخة التي جلبها هذا الرجل سقيمة؛ لم يَعْرِضْهَا بالأُمِّ، ولا قرأها على شيخ، ففيها سقم كثير، فما سلم منها عندي صُحِّحَتْ منه، وبقي ما لم يكن عندي على سقمه، واللّه يُصِحُّ لنا أديانَنا وعلومنا برحمته.

«الإكسير الأحمر» لقاضي العسكر [30] في مسائل الخلاف.

و«أصول الفقه» له.

«تعليقة ابن عمروس» [31] في نصرة مذهب مالك؛ ستون جُزْءًا.

«تعاليق مسائل الفرائض باختلاف معانيها إِلْقَاءً ودليلًا»، تأليف أبي عبد اللّه الفَرَضِي الشقَّاق [32] الزاهد.

«اختصار التقريب والإرشاد» للرازي الحنفي الإسكندراني.

«مدارك العقول» [33] لأبي المعالي.

«البرهان» [34] له.

«المنخول» و«المنتخل» و«التعليقة» للطُّوسِي.

«شفاء الغليل» [35] له.

«غَوْرُ الدَّوْرِ» [36] له.

«تحقيقُ سؤال الكَسْرِ» للشَّاشي.

«نفيُ السُّرَيجية» لابن الصبَّاغ.

«تحقيقُها» لشيخنا أبي بكر الشَّاشي.

«العقيدةُ النظامية» [37].

«الجامعان؛ الجلي والخفي» [38] للإسفرايني؛ عشرة أسفار.

«الأوسط» [39] لأبي المظفر؛ صاحبه.

«غِيَاثُ الأُمَمِ في الْتِيَاثِ الظُّلَمِ» لأبي المعالي.

«المِحَكُّ».

«المعيار».

«تهافت الفلاسفة».

«الأرباع في شرح الزهد».

«إعجاز القرآن» للخطَّابي.

«إعجاز القرآن» لابن الطيِّب القاضي.

«نقض التسديد لعبد الجليل» [40].

«الاقتصاد في الاعتقاد».

«نَقْضُ نَقْضِ التَّمْهِيدِ للطَّبري» لمهدي الورَّاق [41].

«استدراكُ» أبي عمرو الزاهد على ابن قُتَيبة في غريب الحديث.

«فضلُ الوضوء» لابن شاهين [42].

«الفقيه والمتفقه» للخطيب.

«المجلَّة» [43] لأبي عبيدة معمر بن المُثَنَّى.

ومن العربية والأشعار جملة كبيرة ممَّا تعود إلى تفسير القرآن والحديث" [44].

وجرّدتُ منها جملة عظيمة، في:

«أنوار الفجر في مجالس الذكر»،

«معجزات محمد ألف معجزة»،

«قانون التأويل»،

«شرح المشكلين»،

«الناسخ والمنسوخ»،

و«الأحكام»،

«سراج المريدين». في القسم الرابع علم التذكير،

«المحصول»،

«التمحيص»،

«العواصم من القواصم»،

«شرح الترمذي»،

«المتوسط في الاعتقاد»،

«عوالي الحديث»،

فهذه جملةٌ وافرة، مما نفرتُ إليه، ورجعتُ به، مما لم أُسْبَق إليه، وتفقّهتُ فيه، وبه، وأنذرتكُم به اقتداءًا بمن تلزمني طاعتُه، خَيْرِ البشر، وأكرمِ البدو والحضر، رغبةً في أن أُكتب فيما أخبر اللّهُ عنهم، وبشَّر بهم. واللّه ينفعني وإياكم برحمته.

خاتمة:

هذا ما تيسَّر ذِكْره من هذه الكتب التي أوردها الحافظ أبو بكر بن العربي في كتابه «سراج المريدين»، وهو ما يُفسر مُكْنَته في العلم ومُنَّتَه فيه، ويُظهر نوع اقتداره واستمداده، وقد أعانته هذه الكتب في تآليفه المبسوطة والمختصرة، وبعضها لا عهد للناس به، ولا تشوف لهم إليه؛ لأن مؤلفيها من مذاهب لم تكن معروفة بالمغرب والأندلس، وقد كان في النية بَسط الكلام حول هذه الكتب، وذِكْرُ مداخل لها مُعرفة بها وبموقعها، وأترك ذلك لمحل آخر ومنزلة أخرى، واللّه الهادي، وهو حَسْبُنا، ونعم الوكيل.

(30) ذكره ابن عساكر في التبيين: (ص139)، وتاج الدين السبكي في طبقاته: (3/377)، قال: «كان أبو العباس هذا رجلًا من أئمة أصحاب الحنفية، ومن المتقدمين في علم الكلام، وكان يُعرف بقاضي العسكر»، هذا الذي وجدتُ في تعريف حاله، وكتابُه هذا الذي ذكره ابنُ العربي لم أقع له على خبر في ديوان آخر، واللّه أعلم.

(31) يوجد بعضه في قريب من مائة ورقة، محفوظ في خزانة المخطوطات بطرابلس، ذكره له القاضي عياض في ترتيب المدارك: (7/54)، وكانت وفاة أبي الفضل بن عمروس عام 452هـ.

(32) الفقيه العلَّامة الفَرَضِي، الحُسَين بن أحمد بن علي بن جعفر البغدادي، أبو عبد اللّه الشقَّاق، له تعليقة في الحساب، وتصانيف في الفرائض، سمع منه ابنُ العربي في رحلته المشرقية، قال فيه: «شيخنا أبو عبد اللّه الشقَّاق فَرَضِيُّ الإسلام»، ذكره في الأحكام: (4/1674)، والمسالك: (2/222)، توفي عام 511هـ ترجمته في: الوافي بالوفيات: (12/201-202)، وطبقات الشافعية: (7/73).

(33) قال ابن الذهبي (السير: 18/475): «لم يتمه»، وذكره له أيضًا التاج في طبقاته: (5/172)، ورواه ابن العربي عن أبي حامد الطوسي، ينظر: العواصم: (ص36).

(34) يرويه ابن العربي عن أبي حامد الطوسي وأبي سعد الزنجاني، ينظر: فهرس ابن خير: (ص319).

(35) هو كتاب: «شفاء الغليل في بيان مسالك التعليل»، ينظر: طبقات التاج: (6/225).

(36) ذكره له التاج السبكي في طبقاته: (6/226)، وقال: «غَوْرُ الدَّوْرِ في المسألة السُّرَيْجِيَّة، وهو المختصر الأخير فيها؛ رجع فيه عن مصنَّفه الأول فيها، المسمَّى بغاية الغور في دراية الدور»، ومنه نسخ خطية كثيرة.

(37) سمعها ابنُ العربي من الإمام أبي حامد الطُّوسي، يُنظر: العقيدة النظامية -نسخة الإسكوريال-: (ق43/أ)، وفي آخرها (ق78/أ): أن ابن العربي كتبها ببيت المقدس عام 488هـ، ونُشِرَتْ قديمًا بتحقيق العلَّامة محمد زاهد الكوثري.

(38) هو كتاب: «الجامع في أصول الدين والرد على الملحدين»، وهما جامعان؛ جلي وخفي، وأفاد منه السكوني في كتابه «التمييز»، ويتَّصل ابنُ العربي بكُتُبِ الإسفراييني من طريق الإمام أبي سعد الزنجاني، عن أبي المظفر، عن مؤلفها، ينظر: طبقات الشافعية: (4/257).

(39) هو كتاب: «الأوسط في الاعتقاد» لأبي المظفر الإسفراييني، منه سفران بخزانة الدكتور نظام يعقوبي، وكانت من جملة مخطوطات الكتبي محمد احنانة، عرَّفت بها في تقدمتي للكتاب المتوسط في الاعتقاد: (ص42-37).

(40) كتاب «التسديد في شرح التمهيد» لعبد الجليل الرَّبَعِي القَرَوِي، كان حيًّا عام 478هـ، ونَقْضُه هذا لم أهتد إليه ولا إلى صاحبه.

(41) اسم كتاب الطبري هو: «التجريد في نقض التمهيد»، نَقَضَ بزعمه كتاب «التمهيد» للإمام أبي بكر الباقلّاني، وصنَّف الإمام العلَّامة أبو القاسم مهدي بن يوسف الورَّاق كتابًا في نقضه، ومهدي الورَّاق هو من شيوخ ابن العربي الذين لقيهم بالإسكندرية عام 485هـ، ينظر: فهرس ابن خير: (ص301)، وشرح الإرشاد للمازري: (3/ق3/أ).

(42) يرويه ابنُ العربي عن ابن الطيوري، فهرس ابن خير: (ص344).

(43) يرويها ابنُ العربي عن ابن طَرخان، واسمها: «المجلة في الأمثال»، فهرس ابن خير: (ص420)، وذَكرها له ابنُ خَلِّكَانَ في وفيات الأعيان: (5/239).

(44) سراج المريدين: (4/399-410).